د . متياهو بيلد
ياسين فاتح الابواب

نسيلة من « الشرق » ، حزيران / تموز ١٩٧٢ ،
السنة الثالثة ، العددان ١ / ٢ ، ص ٧٧ — ٨٢

د٠ متتياهو بيلد

ياسين فاتح الأبواب

١

لاحظ الاب جوميبه (Jomier) ، العالم الفرنسي المقيم في القاهرة ، في دراسته الهامة عن ثلاثية نجيب محفوظ القاهرية ، ان الثلاثية ليست قصة من قصص القديسين ٠ واعتقد ان هذه الملاحظة جديرة ان تذكر ، لان العادة الغالبة على كتابة الروايات في مصر حتى اليوم هي تصوير المصريين والمصريات بشكل لا يجعلهم عرضة لنزعات سافلة واهواء لا تليق بمزاجهم الرفيع ٠ فالكاتب المصري عادة يتفادى تصوير بطل من ابطاله وكانه منحط من الناحية الاخلاقية ٠ ولا اقصد بذلك ان الكتاب المصريين يصورون ابطالهم وكانهم ليسوا من ابناء البشر ، وانما اقصد انهم عندما يصورون الشخص الدنيء المنحط فهم يجعلونه رمزا لصفة شيطانية معينة او ضحية من ضحايا قوى الشر التي لا تقاوم ٠ وكثيرا ما نرى هذه القوى تتمثل بصورة امراة اجنبية نصرانية او يهودية ، اما اذا كانت مصرية فهي من الاجانب المقيمين في مصر ، او تركية الاصل ٠ وهناك ملاءمة واضحة بين هذه الظاهرة الادبية والفلسفة الشاملة القائلة بان الشرق ، وخاصة الشرق العربي ، هو في جوهره طاهر الذيل روحاني في ميوله ، اما الغرب فهو اساسيا فاسد الاخلاق ومادي في طبيعته ٠ وكل من يريد الاطلاع على كتاب يعبر عن هذه الفلسفة فعليه أن يقرأ، كنموذج بارز لهذا الصنف من الكتب ، كتاب «**الشرق والغرب**» لاحمد امين وخصوصا الفصل الحادي عشر وعنوانه «مادية الغرب وروحية الشرق» ٠

وليس هذا التيار الفكري بجديد لدى الادباء المصريين وكثيرا مانرى كيف تتخذ هذه النظرية شكلافنيا في الانتاج الادبي ٠ فعندما يمثل الطالب المصري في اوروبا، في رواية ما ، دورالمنقذ للمراة الاوروبية الساقطة ويعيدها الى الصواب ، فنحن نفهم ان المراة الساقطة هي الرمز المألوف لانحدار اوروبا المعنويفي هذا النوع من الروايات٠ والرواية النموذجية لهذا النوع من الادب المصري هي فيما اعتقد رواية «**جسر الشيطان**» لعبد الحميدجودةالسحار٠

ولذلك اقول ان الامر الذي يلفت النظر في روايات نجيب محفوظ واقاصيصه هو انها خالية من النظام الثنائي من القيم الاخلاقية او المعنوية ، ذلك النظام الذي اصبح من صفات الادب المصري كما اسلفنا ٠ فنجيب محفوظ لا يرى الحياة منقسمة الى شطرين ، الشطر الطاهر والشطر الفاسد ، الشطر الطيب والشطر الشرير ، الشطر النبيل والشطر الحقير ٠ وفي الحقيقة يصعب علينا جدا ان نحاول تحديد موقف نجيب محفوظ من الحياة ، لانه نفسه ينفر من كل محاولة لتحديد مواقفه بصورة نظرية ٠ ومع ذلك لا نرى بدا من الاشارة الى ما يمكن استنتاجه بعد النظر المتواصل في اعماله الادبية ٠ فاذا كان ثمة طابع ثنائي للحياة ، كما يصفها نجيب محفوظ ، فهو عبارة عن الحياة الكاملة المرضية بخلاف الحياة الجزئية غير المستقيمة ٠ واعتقد انني استطيع ان استشهد على ذلك بقصة قصيرة له تدعى «**دنيا الله**» ٠ في هذه القصة ، نرى رجلا بائسا متقدما في السن اسمه عم ابراهيم ٠ وكان عم ابراهيم هذا خادما في احد المكاتب الحكومية حيث عمل اربعين عاما ٠ وكان يعيش مع زوجه العجوز العمياء في غرفة صغيرة من بيت متهدم ، اما الاولاد فقد هجروا البيت منذ سنين ولم تبق لهم اية صلة بالوالدين ٠ وكان عم ابراهيم رجلا ذا نفس طيبة ، وكانت اخلاقه في جملتها على ما يرام ٠ ولكنه انتبه في الاشهر الاخيرة الى احدى فتيات الشارع في السابعة عشرة من عمرها ، ذهبية الشعر زرقاء العينين ، كان الناس يلقبونها «الانجليزية» ٠ فوقع الرجل في حبها ولشغفه الشديد بها عرض عليها الزواج فرفضته الفتاة وضحكت عليه ٠ حتى كان يوم حدث فيه ما لم يكن متوقعا ٠ فبعد ان استلم عم ابراهيم الرواتب الشهرية لجميع الموظفين في المكتب ، كما كانت العادة اختفى قبل ان يسلم المال الى اصحابه ، واختفت معه الفتاة «الانجليزية» ٠

وسافر الاثنان الى ابو قير حيث راى الرجل البحر لاول مرة في حياته وتمتع مع فتاته من نعيم الحياة ما

امكنه التمتع حتى تعبت منه الفتاة وحاولت الهرب منه مع ما تبقى من المال المسروق · وعرف الرجل بعد ذلك ان سعادته تشرف على نهايتها فاعطى الفتاة نصف ماله وارسلها وذهب هو بمفرده الى الاسكندرية · وهناك دخل الى احد الجوامع وجلس يفكر طويلا في حاله وبؤسه حتى بكى · وفي هذه الحالة قبض عليه · وعندما كان يسير مع الشرطي الى نقطة البوليس نظر اليه هذا الاخر ورآه مستسلما محمر العينين فسأله :

«تقدر تقولي ماذا دفعك الى تلك الفعلة وانت في هذا العمر ؟!

ابتسم عم ابراهيم ، ثم رفع اصبعه الى فوق وهو يغمغم :

ـ الله ··

ندت عنه كالتنهدة» ·

وهذا الجواب يحتوي فيما اعتقد على راي شامل للحياة · وهذا الراي هو ان الحياة الكاملة ليست شيئا يستحقه البعض ويحرم منه البعض الاخر وانما هي من حق الجميع · ومن لا يحصل عليها فهو يتطلع اليها ، واذا اعانه الله فهو يظفر ولو لفترة وجيزة ، لو بمبلغ من المال الحرام بشيء من السعادة التي حرم منها طوال عمره · فكل من يدعي ان الامر ليس كذلك فهو كاذب ·

٢

ولنرجع الان الى بطل قصة **«بين القصرين»** السيد احمد عبد الجواد ، وابنه ياسين ، يقول الاب جوميبه عن السيد ان له شخصيتين متناقضتين : شخصية الرجل المتدين والاب الحنبلي الصارم ، وشخصية الرجل اللين العريكة ، الشهواني السافر ، الذي ينشد الحياة المترفة لارضاء اهوائه · ويعترف الاب جوميبه بانه فوجيء عندما قرأ للمرة الاولى قصة **«بين القصرين»** لانه لم يكن يتوقع ان توجد في القاهرة شخصيات كشخصية احمد عبد الجواد ولم يكن يتصور انه من الممكن ان يعيش شخص كما عاش عبد الجواد في محيط قاهري غني في اوائل هذا القرن ·

ويضيف الاب جوميبه قائلا ، وهو على صواب بدون شك ، انه يحس بان هناك شيئا من التوازي بين طبيعة السيد احمد عبد الجواد وتطور شخصيته عبر مراحل شتى الى انحداره الاخير ، وبين تقلبات السلطة الانجليزية في مصر · فكلاهما يبدو سلبي الطبع · ولذلك يقبل الجميع انصرافهما في النهاية عن ساحة الحياة كفرج منتظر · والحقيقة ان كل من يقرأ قصة **«بين القصرين»** وسائر اجزاء الثلاثية بعناية يشعر بالارتياح الذي يعم جميع اللذين عاشوا في ظل السيد خاضعين لقانونه الصارم ، وذلك عندما احسوا رويدا رويدا بزوال سلطانه وقوته · ولكن يجب علينا ان نسأل انفسنا ما معنى هذا الشعور بالارتياح الذي انتشر بين اهل بيته لزوال سلطانه ؟ ويبدو لي ان سبب هذا الشعور هو انهم احسوا آنذاك وكأن حجابا مرهقا قد ازيح عن حياتهم، هذا الحجاب الذي جعله السيد الفارق بين شطري حياته ، اعني حياته العائلية وحياته خارج البيت · وازالة هذا الفارق او هذا الحجاب لا تبدو كشيء مخيف او كهدم عالم باسره ، وانما تبدو كشيء يرحب به لانه يعيد الحياة الى مجراها الطبيعي ·

واعتقد ان من الناحية الفنية قد نجح الكاتب هنا نجاحا جديرا بالاعجاب وذلك بفضل الحيلة التي احتال بها علينا نحن القراء · فالمؤلف ، بخلاف ما يعتقد الاب جوميبه ، لم ينكر قط شهوانية السيد احمد عبد الجواد ، وسيره وراء اهوائه خارج البيت ، وانما الامر الذي جعله الكاتب منكرا للغاية هو ادعاء السيد داخل البيت بانه يعيش حسب نظام يختلف عن الاول كل الاختلاف · والاحساس بالنجاة الذي شمل جميع من عاشوا في البيت مع السيد يعود الى انهم ادركوا بعد زوال سلطانه ان النظام الثنائي الذي مثله السيد بحياته كان لا مبرر له ولا حقيقة فيه ، لانه بطبيعة الحال ليس اي تناقض بين الوقار والحياة المحترمة من جهة والحياة الحسية الطبيعية من جهة اخرى ·

وهذا التطور المدهش لا يرد علينا كمفاجأة حين نقرأ القصة ، فاننا نشعر في سياق القراءة ان محاولة السيد لاقامة الحجاب الذي يفصل بين حياته العائلية وحياته الاجتماعية هي محاولة عقيمة لا طائل تحتها · ونحن نشعر بهذا من الفصول الاولى لقصة **«بين القصرين»** وفي الواقع ، هذا هو العامل الذي يتيح للكاتب فرصا كثيرة لخلق عدد غير قليل من المشاهد والمواقف التي شد ما تختلف بعضها عن بعض · فمنها الهزلية ومنها المبكية ،

وكل منها يبرز حماقة السيد لايمانه بانه يستطيع ان يحيا حياته الثنائية بدون ان يفتضح امره . وكلنا نذكر مثلا المشهد المؤثر الذي راى فيه كمال ، اصغر اولاد السيد ، اباه وهو يضحك مع زميل له خارج الدكان كاحد الناس العاديين مما جعل الطفل يتجمد في مكانه من كثرة الدهشة لهذا المنظر الغريب .

٣

واظن ان الاب جوميبه ربما لم يفهم قصد الكاتب عندما قال انه من المؤسف ان ترى الوالد وابنه – يعني ياسين – يستبدلان مكانهما مرة بعد اخرى عند النساء اللواتي يتبادلان معهن الغرام لان المغامرات الغرامية التي يشترك فيها الاب وابنه بحيث لا يحفل احد منهما بالموقف الحرج الذي يقع فيه ، ان هذه المغامرات تبرز ما اسلفنا قوله عن قصد الكاتب . واعتقد ان قصده يصبح بعد ذلك واضحا تمام الوضوح ، وهو اننا نرى ما عسى ان يتمخض عنه التزمت المفتعل والمنهج الحنبلي المزيف ، فكل هذا لا يؤدي الا الى احوال غير مقبولة وغير مرضية .

وهكذا نرى ياسين عندما افتضح ابوه امامه وهو يتمتع بصحبة زملائه وزميلاته في سهرة ليلية ، وقد وقع هذا عندما زار ياسين للمرة الاولى الفتاة المنتمية الى نفس الجماعة التي كان ابوه يسهر معها . وكل هذا طرأ عليه فجأة في اللحظة التي تركته زنوبة – وهو اسم الفتاة – وحده في الظلام في غرفة مجاورة للغرفة التي كان السيد واصحابه يحتفلون فيها ففي هذه اللحظة فتحت زنوبة الباب المغلق المؤدي الى غرفة المحتفلين ، حاملة طبقا من العنب اليهم . ومن خلال الباب المفتوح راى الابن اباه كما لم يره من قبل وكما لم يكن يتصور ان يراه ابدا .

فلنستمع كيف يصف الكاتب هذه اللحظة :

«هناك بدأ مجلس الطرب في صدر الحجرة تتوسطه زبيدة [العالمة] محتضنة العود وهي تلعب بالاوتار باناملها وتغني «يا مسلمين يا اهل الله» وعلى كثب منها جلس ابوه دون غيره – وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته – متجردا من جبته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة او دقيقتين ، ولكنه راى فيها منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلة عريضة ، استيقظ في اعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف . رأى في دقيقتين عمرا كاملا ملخصا في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة جامعة لاحداث شتى يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعواما طويلة . رأى اباه حقا، اباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود ان يراه ، فلم يسبق له ان راه متجردا من جبته في جلسة مريحة منسابة مع سجيتها ، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الاطراف كانما جاء يعدو حاسر الرأس ، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر ، ولا رأى – اي والله – الدف بين يديه يرعش باعثا شخشخته المتقطعة بالنقر الرشيق . ولا رأى – ولعله اعجب ما رأى – هذا الوجه الضاحك المتألق السريان بالود والصفاء الذي اذهله كما اذهل كمال من قبل حين رآه يضحك امام الدكان .. راى هذا كله في دقيقتين ..»

لا شك ان المنظر الغريب اذهل ياسين اول الامر ، ولكن بعد دقائق سكن روع الشاب واخذت حقيقة الموقف تتبلور في ذهنه على الوجه التالي

«انا هنا مع زنوبة وابي في الحجرة القريبة مع زبيدة ، كلانا في بيت واحد» . اجل ، كلاهما في بيت واحد ، او كما يقول المثل كلاهما في نفس الزورق ، وكل ما يحجب الواحد عن الآخر هو هذا الحائط من النفاق ، هذه الاوهام التي تملي بانه من الواجب ان يعيش الناس تحت ستار من الرياء اذا كانوا يريدون التمسك بمبادئهم الموروثة .

وكلما اطال ياسين تفكيره في الموقف ازداد عجبه ، وادرك فجأة انه لا يختلف عن ابيه كل هذا الاختلاف الذي تعود ان يقبله كحقيقة لا مراء فيها . وياسين كما نعلم بلغ رشده بصورة متعجلة ، وفي سن مبكر بدأ يمارس الحياة الجنسية وربما كان يحب ان يتمتع بملذات الحياة اكثر مما كان يحسبه الاخرون لائقا بغلام في مثل عمره . وعلى كل حال ، لما بلغ الحادية والعشرين من عمره وكان هذا في عام ١٩١٧ ، احس بالحرب العالمية الاولى بصورة ملموسة عندما اضطر على البحث عن مواقع ملذاته في انحاء المدينة المنزوية في اماكن لم يتعود الجنود الاستراليون على التردد عليها ، وكان الجنود الاستراليون اكثرية الجيش البريطاني انذاك في مصر ، وقد استولوا على الاماكن الايسر منالا في القاهرة . وهكذا حدث ان

وصل ياسين الى هذا البيت – ولم يكن بؤرة للفساد وانما مجرد مكان لاجراء سهرات ليلية ممتعة – وكان ابوه الحنبلي من رواد هذا البيت المحترمين ·

وكان ياسين يشعر قبل ذلك انه دون ابيه درجات ، وان اباه كان يفوقه من الناحية الاخلاقية · وكما يقول نجيب محفوظ «**كان ياسين كأكثرية الغارقين في الشهوات المحرمة يستأنس الى الشبيه ، وكيف ان وجده في شخص ابيه – القدوة التقليدية – الذي طالما ازعجه ، بشعور وبلا شعور منه ، ان يجد نفسه واياه على طرفي نقيض**» · ولذلك غلبه الفرح لما كشف عن ابيه ما كشف لانه احس كانه اكتسب هذه الليلة ابا كان بامكانه – كما قال الكاتب – «**ان ينظر اليه بحب واعجاب جديدين – غير الحب و الاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف ·· بل كانهما وهب الذات والاعجاب بها شيء واحد · لم يعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الابواب ولكن دانيا قريبا قطعة من نفسه وقلبه ، ابا وابنا ، وروحا واحدا · ليس الرجل الذي يرعش الدف في الداخل السيد احمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكما يجب ان يكون ، وكما ينبغي ان يكون ··**»

ومن فرط فرحه واعجابه بابيه جعل ياسين يهنيء اباه : «**هنيئا لك يا والدي ، اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك في نفسي**»

٤

والاب جومييه في حيرة بالنسبة الى قصد نجيب محفوظ بخلقه لشخصية ياسين ، وهو يعتبره رجلا سيء الخلق ، ضعيفا لا يقدر على كبح جماح اهوائه ويسأل الاب جومييه: الم يكن قصد نجيب محفوظ الاشارة الى ما يمكن ان ينتهي اليه الامر اذا كان المرء ذا شهوات لا تقهر من جهة ، وبلا اخلاق من جهة اخرى ؟ ويمضي الاب جومييه بذلك ان ياسين يمثل شخصية سلبية بينما يمثل ابوه شخصية ايجابية أساسية لما فيها من قوة ارادة والتمسك بالمبادىء ، على انها لا تخلو من ضعف بشري وميل الا الاستهتار احيانا ·

ويبدو لي ان جومييه اخطأ مرة اخرى في تفسيره لنوايا نجيب محفوظ ، وبهذا التفسير يجرد قصة ياسين وابيه من معناها العميق بالاضافة الى انه يغض النظر عما انجزه الكاتب بخلقه لهذه الشخصية البارزة ، شخصية ياسين · والدور الرئيسي الذي يمثله ياسين كما اراه انا هو دور فاتح الابواب المغلقة والكاشف عن التكلف والزيف في الحياة الاجتماعية · ولا بدع ان اختار الكاتب فتح الابواب كاستعارة تقرب الى الاذهان ما يفعله ياسين · لان فتح الابواب المغلقة هو ليس رمزا يمهد الطريق امام ياسين الى غايته فحسب ، وانما فتح الابواب المغلقة هو التعبير المستعمل في المناقشة التاريخية ضد التحفظ والتمسك بتقاليد الاجيال والنهي عن حرية الفكر وحرية التصرف · وبعبارة اخرى ، فتح الابواب المغلقة هو عبارة عن التطلع الى تجديد حرية الاجتهاد الفردي ، وهذا هو الهدف الاساسي للحركة الفكرية العظيمة التي ضمت اكبر المفكرين في انحاء البلاد الاسلامية في الجيل الماضي ، والمعروفة «بالسلفية» · والدعوة الى فتح ابواب الاجتهاد التي اغلقت في القرن الثالث الهجري اصبحت اهم شعارات هذه الحركة الفكرية الخطيرة · ولا اريد ان يفهم من هذا انني اشير الى انضمام نجيب محفوظ الى هذه الحركة – ولا اظن انه انضم اليها في اي مرحلة من مراحل حياته – ولكن لا شك عندي ان هذا المشهد الرائع ، مشهد فتح الباب المغلق الذي اختاره المؤلف كنقطة تحول حاسم في تطور العلاقات بين ياسين وابيه ، مشحون بمعان ورموز من شأنها الا تضيع على القراء · ولا اشك في ان هذا العمل البسيط ، عمل فتح الباب المغلق ، اصبح في هذه الرواية رمزا مركزيا لجميع ما فعله ياسين فيما بعد · لان ياسين هو المرء الذي تحدى التقاليد وهاجم العادات السائدة ليس لانه ثوري او مناضل – وهو ليس ذلك ولا ذاك – ولكن لانه انسان لا يقبل الرياء والزيف في الحياة بحال من الاحوال · فغاية ما يصبو اليه ان يحيا حياة كاملة سليمة ، حياة ملائمة لطبعه ، ومرضية لحاجاته ·

واذا صح ما قاله المستشرق الفرنسي بيرك (Berque) بان الازمة النفسية الكبرى في حياة العرب اليوم هي نتيجة للخيبة عندما يريد المرء ان يكون شيئا بينما هو بالفعل شيء اخر ، وبعبارة اخرى ، ان المجتمع العربي يعيش في نطاق نظام نفسي ومعنوي ثنائي كما عاش السيد احمد عبد الجواد ، اذا صح كل هذا ، فلا شك في ان ياسين هو الذي انقذ نفسه من هذه الازمة لانه سنحت له الفرصة وفتح له الباب للتخلص منها ·

وهكذا نرى ياسين واقفا في الظلام وهو يرى نورا عظيما ينبثق من وراء الباب المفتوح · وربما لم يحصل بعض القراء على هذا المعنى في القراءة السريعة للرواية ، لان نجيب محفوظ يتجنب الكتابة الدعائية المكشوفة · ولكن ، اذا امعنا النظر في ياسين في اللحظة الرهيبة واستمعنا الى افكاره فان المعنى المشار اليه يصبح واضحا جدا · وهكذا يتحدث ياسين الى نفسه :

«كيف تسكر يا ابي ؟ كيف تعربد ؟ ينبغي ان اعرف لاحتذي مثالك واحيي تقاليدك · كيف تعشق ؟ كيف تعانق؟» والكلمات التي تستعمل في هذه المفاجأة مأخوذة جميعها من المناقشة التي اسلفنا ذكرها حول مسألة التقليد والاجتهاد · ويبدو كان كلمات ياسين هنا معناها هو كما يلي : الان ، بعد ان فتح الباب المغلق امام عيني، استطيع ان ارى الحقيقة عن ابي وحياته كما هي · والان بعد ان ازيح الحجاب فانا مستعد ان احاكي ابي واحتذي مثاله· ونحن نعرف تمام المعرفة انياسين لميكن مستعدا ان يحاكي اباه قبل هذه الساعة ، قبل ان عرف حقيقة حياته وهكذا نرى كيف اختفى الحجاب في لمحة البصر وزال الزيف الحائل دون الاجيال ، هذا الزيف الذي يبعد جيلا عن جيل · وكانما كان ياسين يقول : لو استطعنا ان نرى اباءنا على حقيقتهم ، ولو كان اباؤنا يرون ابناءهم على حقيقتهم ، لزال الفارق الحائل بين الاجيال ، وهذا بدون ان يزول معه الاحترام من ناحية الابناء الى الاباء · وبالفعل نحن نعلم ان ياسين ، اكتسب بعد هذه التجربة شيئا من الثقة بنفسه ، فترت علاقاته مع ابيه ، ومع ذلك كان يحترمه احتراما عميقا لا يقل عما كان عليه قبل هذه التجربة · يصف نجيب محفوظ حالة ياسين النفسية في هذا الموقف مباشرة بعد ان رجعت زنوبة واغلقت الباب، بصورة ان دلت على شيء انما تدل على خبرته ككاتب وفهمه لنفس ابطاله ، وهذا ما تقرؤه الان عن ياسين :

«وانتبه الى زنوبة فرآها أمام المرآة وهي تسوي اهداب شعرها باناملها وقد لاح ابطها من فرجة الفستان اهلس ناصعا يتصل منحدره بأصل نهد كثرصه العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كانه فيل ينقض على غزال» ·

ولكن لا بأس ، فنحن نرى هنا بداية حياة زوجية سوف تتجلى كاكمل حياة زوجية جربها ياسين · وذلك لان زنوبة ـ وهذه هي احدى المفاجآت البديعة في القصة ـ زنوبة اصبحت فيما بعد زوجة مثالية ، وبالفعل الزوجة الوحيدة التي عرفت كيف تتمسك بياسين ، وهي التي اقامت معه عائلة ثابتة وهي التي انجبت احفادا للسيد احمد عبد الجواد · وفي نهاية الثلاثية سنرى كيف تكون ابنة زنوبة زوجة لابن خالتها خديجة وكيف تحمل هذه البنت في رحمها ذرية حفيد للسيد احمد عبد الجواد من ابنته المحبوبة ، الا وهي خديجة نفسها · فعلينا ان نذكر ان ياسين قد تزوج مرتين قبل ان يتزوج من زنوبة ولكن الزواج فشل في المرتين · واعتقد بان من واجبنا ان نسأل انفسنا كيف يتحتم علينا ان نفهم هذا التطور الغريب ، وما معنى هذا النجاح في حياة ياسين مع زنوبة بعد ان فشل في حياته الزوجية قبل ذلك ؟ هل هنالك علاقة ذات معنى عميق بين هذا النجاح وبين ما سببته زنوبة عندما فتحت الباب المغلق امام ياسين وكشفت له الحقيقة عن ابيه ؟

على كل حال فعلينا ان ننتظر طويلا قبل ان تتزوج زنوبة من ياسين وتتمتع معه بحياتها الزوجية · فقبل ذلك ستكون زنوبة عشيقة السيد نفسه ولم تكن هذه المرة الاولى التي يشترك فيه الاب والابن بنشاطهما الغرامي بدون ان يعلم الواحد شيئا عن الاخر · اما فيما يتعلق بزنوبة فنحن نعلم انها كانت عشيقة السيد الاخيرة ، وبعد ان تركها تزوجت من ياسين · وكان السبب في ترك السيد لزنوبة انها طلبت اليه ان يتزوج منها فلم يقبل السيد هذا لانه اعتبر الزواج من امراة كزنوبة شيئا يمس كرامته · ولما علم بعد ذلك انها سوف تنضم الى عائلته كزوجة ابنه ياسين لم يستطع ان يفعل شيئا سوى ان يتمنى الا تعلن زنوبة حقيقة العلاقات بينه وبينها ويفتضح امره ·

وحتى قبل ذلك تورط الاب وابنه في مغامرة غرامية مع ام مريم ، الارملة الشهوانية التي جذبت اليها السيد اول الامر وبعد ان تعب منها اجتذبت اليها الابن · اما قصة ياسين وام مريم فهي اكثر تحديا للقارىء وللقيم المألوفة · ولا بد ان يسأل القارىء الى اين يريد الكاتب ان يسوقنا بهذه السلسلة اللانهائية من المغامرات ؟

وكان اللقاء الحاسم بين ياسين وام مريم لما زارها الشاب ليخطب ابنتها مريم · وكانت النتيجة انه ارتضى الى حين بام المخطوبة كعشيقة له · ولما تم الزواج بعد ذلك كان الامر كله شيئا مؤلما لاهل ياسين لان مريم

اصبحت لديهم رمزا لفشل الاخ العزيز فهمي الذي طلب في الماضي الى ابيه ان يخطبها له فرفض الاب طلبه · وحدث بعد ذلك ان فهمي ذهب ضحية في المعركة ضد الانجليز عام ١٩١٩ ، ولذلك شعر كل فرد من افراد العائلة ان زواج ياسين من مريم هو اهانة لذكر الاخ الشهيد · ولكن احدا منهم لم يعلم ان معارضة السيد للزواج نجمت عن مقته لمصاهرة ام مريم عشيقته القديمة · الا ان كل هذه المعارضة لم تجد فتيلا ، وتزوج ياسين من مريم رغم انف ابيه فكان هذا هو الزواج الثاني في حياة ياسين · وانتهى الزواج الاول بالفشل كذلك لان الفتاة النبيلة ، التركية الاصل . لم تكن كما يشتهي فحاول مرة ان يشبع شهواته بخادمتها السوداء فلما انكشفت الفضيحة لم يكن مفر من الطلاق · وكان هذا الفشل اول ماكان فشل السيد نفسه لانه هو الذي اختار زوجة ياسين اذ كانت ابنة احد اصحابه المقربين · ففهم السيد بعد ذلك انه لا يستطيع انيتدخل في هذه الشؤون مرة اخرى فعليه ان يكف عن التحكم في امور ابنه ، ويتركه ليختار زوجته بنفسه ·

وكانت مريم زوجة طيبة الا ان ياسين ضجر منها فاتجه مرة اخرى الى نواح شتى يبحث عن سعادته · وهذه المرة وجد ضالته المنشودة ، في شخص زنوبة فاتحة الباب · وكانمن حسن حظه ان العلاقات بينزنوبة وابيه قد اشرفت على نهايتها وكانت هي حرة في قبول دعوته · وقادها ياسين ليلتها الى بيته وكلاهما سكران واستيقظت المسكينة مريم ، الزوجة العفيفة ، وكانت الفضيحة وكان بعد ذلك الطلاق – اما ياسين فلم يلبث بعد ذلك ان يتزوج من زنوبة وكان الخبر كالفاجعة بالنسبة للسيد وما استطاع ان ينبس ببنت شفة · وكان من حسن حظه ان زنوبة ايضا كتمت سرهما · وبعد بضع سنين ، بعد ان اتضح للجميع ان زنوبة كانت زوجة مثالية لياسين ، واما حنونا لابنائهاحتضنتها العائلة كاحدى بناتها المفضلات · وكان هذا هو نجاح ياسين الاعظم ، ولكنه لا يكاد يفهم اهمية المرحلة التي اجتازها ·

٦

والسؤال الذي يجب ان نعود فنسأله قبل ان ننتهي من معالجة هذه القصة الغريبة التي يقصها علينا هذا الكاتب المبدع وكأنه يقص قصة عادية لا مغزى لها ولا عبرة فيها ، هو لماذا كتبها ؟ ولماذا اطال كتابتها كل هذه الاطالة ؟

ويجب الا يخدعنا اسلوبه الساذج ، فلا احسب انه يوجد اليوم كاتب عربي ذو اسلوب اكثر خداعا من نجيب محفوظ لانه كثيرا ما يقص اروع القصص واعمقها معنى باسلوب لا يكاد يلفت انتباهنا الى مغزاه · ومع ذلك ، فبعد ان نمعن النظر فيما نقرأه ندهش من جرأته فيما يدعو اليه ونعجب بشجاعته في تحدي القيم التي يريد ازالتها ·